تنبو عنه العين ، وينقبض له الصدر ، وكثيراً ما تكون قيمة المصنوع من الأحجار أغلى من الذهب النضار ، لمكان الصنعة ودقة العمل ، وما التماثيل الحجرية التي تراها في دور الآثار ، فتسحر عينك وتبهر لبك ، فتقدرها بمئات الألوف ، إلا أحجار كثيرة الوجود ، زهيدة الثمن ، قيمتها ما ينفق عليها في حملها من مكان الى مكان ، ومن جهة الى أخرى ، وهل نزلت من نفسك تلك المنزلة ، ونالت منك هذا الاعجاب لشيء غير أحكام صنعتها ودقة عملها

(يتبع) مصطفى عنانى

موقعة شريش الحاسمة أو فتح الاندلس

(تكملة لسالفة)

منقولة من الجزء الثانى من كتاب نزهة القارئ للمدارس الثانوية

تأليف حضرة الأستاذ احمد الاسكندرى

فالتقى جيش طارق بجيش رذريق على نهر يصب فى خليج قادس من المحيط يسمى (وادى لطة[1]) على سهل من الارض يسمى فحص[2]

---

(١) خص بعض المؤرخين نهر (بكة) بالموقعة وهو نهر صغير مجاور لوادى لطة

(٢) يطلق الفحص فى عرف عرب الاندلس على كل واد معمور ثم توسعوا فى اطلاقه على كل معمور سهلا كان أو جبلا كما نقله ياقوت

شريش[١] من كورة[٢] شذونة . ففرق طارق جيشه ارسالا ليعظم فى عين العدو. ثم التحم الفريقان لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢ هـ وحمل زذريق على سريره ، وعلى رأسه رواق من الديباج تكتنفه غابة من الاعلام والبنود ، وبين يديه المقاتلة ، فزحف القوط مشاة وفرساناً مدججين بأكمل العدة ومختلف الاسلحة من سيوف ودرق ودروع مذهبة وطبرزينات[٣] وفئوس ومناجل ومقاليع ، وتلقاهم طارق بأصحابه متسربلين بالدروع السابغة ، مستجنين بالدرق اللمطية[٤] ، وقد اعتقلوا الرماح وتقلدوا السيوف وتنكبوا القسىّ العربية وعلى رءوسهم العمائم البيض. فانتشبت الحرب وحمى وطيسها ، واستبسل القوط ، وثبت لهم المسلمون ، ودامت الحرب سجالا بينهم سبعة أيام . فكبر ذلك على طارق فنادى

---

(١) مدينة شمالى وادى لطة قرب مصبه

(٢) عرف ياقوت الكورة بأنها كل صقع يشتمل على عدة قرى وينسب الى قصبة مسماة بهذا الاسم وقد ينسب الى مدينة عظيمة فيه أو نهر، فشذونة مدينة كانت قصبة الوادى الذى يسقيه نهر لطة وبينها وبين النهر كانت الموقعة — وشذونة معرب (صيدون) مدينة بناها الفينيقيون باسم صيدنية التى بنوها بالشام . وأن العرب عربت صيدون الشام باسم (صيداء) وصيدون الاندلس باسم شذونة

(٣) الطبرزين والطبر : فاس لها رأس قائم كالسيف يشبه هلالا أو نصف قرص وقد يكون لها رأس ثان أعلاها كسنان الحربة

(٤) نسبة الى (لمطة) أرض لقبيلة من البربر كانت تنقع الجلود فى الحليب سنة فيتخذون منها درقاً تنبو عنها السيوف القواطع

حماة جيشه وخطبهم خطبته الخالدة التى أعقبها الفتح فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر فضل الجهاد ورغب فى الشهادة :

« أيها الناس ! [1] أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام فى مأدب اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوبُ من رُعبها منكم الجرأةَ عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خِذلانَ هذه العاقبةَ من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أُحذرْكم أمراً أنا عنه بنَجوةٍ ، ولا حملتُكم على خُطةٍ أرخص متاع فيها النفوس أرباً عنها [2] بنفسى واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم

---

(١) كان المناسب احالة من لم يطلع على الخطبة على الكتب المدرسية وغيرها ، ولكنها وقعت فى جميع مرات طبعها محرفة قليلا أوكثيراً فذكرناها مصححة بقدر ما نعلم

(٢) وقعت فى جميع مرات الطبع هكذا (أبدأ) وأعقبها بعض الطبعات بلفظ (بنفسى) و بعضها بلفظى (فيها بنفسى) كما فى ابن خلكان. وهى عبارة لو تركت وحالها فى الروايتين كانت مع سياق الكلام قلقة نافرة عن اسلوب الخطبة فى البلاغة فنرى ان لفظ (ابدأ) محرف عن (أرباً) ولفظ فيها محرف

بالارفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ؛[1] فيما حظكم فيه أوفر من حظى[2] وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُزبانا[3] ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه

عن لفظ (عنها) ومثل هذا كثير فى المخطوطات القديمة وتكون جملة (أربأ) فى موضع الحال

(١) وقعت فى بعض الطبعات (فما حظكم فيه بأوفر من حظى) والمعنى معها فاسد معكوس ووقعت فى رواية ابن خلكان ما أثبتناه وهو مستقيم

(٢) استبدل بعض مصححى الطبعات الحديثة بعد لفظ الجزيرة هذه الزيادة (من الخيرات العميمة) بعدة فقار بليغة فى وصف ما يترقب احرازه من السبى درءا لهواجس النشأ لبعدهم عن مقاصد السلف رحمهم الله فى نشر الدين ورفع العصبية . ونحن نستحسن الحذف كما فعلنا بدل أن نضع من عند أنفسنا عبارة مقحمة خلال كلام غيرنا أى انه يجوز الاختصار بالحذف فى الرواية (كما فعل القالى فى خطبة زياد) ولا يجوز فيها الوضع والزيادة من عند الراوى

(٣) وردت فى جميع مرات الطبع (عربانا) ظناً من المصححين انه جمع عرب وهو جمع لم يرد فى الفصيح على أنه لامعنى لتخصيص الاعراب هنا مع ان جيش طارق كان بربريا ، فاذن هى محرفة عن (عزبانا) من العزوبة بمعنى عدم التأهل ، وقد كانوا يستصلحون حال الاعزاب من الفقراء ببعثهم فى الغزوات ليتأهلوا ويمتزجوا بالامم فينشروا الاسلام بينهم . (وعزبان) يصح أن يكون جمعاً لعزب كجذع وجذعان أو لعزيب كقعيد وقعدان وشجيع وشجعان وثنى وثنيان أو لعازب كصاحب وصحبان وراكب وركبان أو لأعزب على رأى غير أبى حاتم كأعمى وعميان لان الخلو من الزوج من العيوب ، وتكون اجازة غير أبى حاتم له : قياساً على انه مذكر عزباء المسلم وروده من الجميع ، وسماعا فى حديث (ما فى الجنة أعزب) (تاج العروس) وحديث نافع عن عبد الله بن عمر انه

بارتياحكم للطعان وإسماحكم [1] بمجالدة الأبطال والفرسان ؛ ليكون حظه [2] معكم ثواب الله على اعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولىُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين واعلموا أنى أوّلُ مُجيب الى ما دعوتكم اليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتِلهُ ان شاء الله تعالى، فان هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تُسندون أمورَكم إليه . وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهمّ [3] من فتح هذه الجزيرة بقتله فأنهم بعده يخذلون »

كان ينام فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعزب (المغرب للعارزى) ولا مانع أن تكون محرفة عن عُزّاب (جمع عازب) أو (أعزاب) لولا مكان السجعة بعدها

(١) وقعت العبارة فى جميع مرات الطبع بلفظ (استماحكم) ولا يكون الا مصدر الفعل (استمح) وليس فى جميع معجمات اللغه التى بأيدينا بناء (افتعل) من هذه المادة ولا هو قياس فى مثلها وانما اللفظ محرف عن (إسماحكم) مصدر (أسمح) بمعنى مرن واستراض وانقاد ونقف ، فيكون السياق باستراضتكم وثقافتكم وبصركم بمجالدة الخ (راجع اللسان وغيره)

(٢) فى نسخ بعض المطبوعات (ليكون حظه منكم ثواب الله) وفى رواية ابن خلكان (حظه معكم) وهى الملائمة لتصح المقابلة (بخالصاً لكم)

(٣) فى رواية ابن خلكان (المهم) كما أثبتناها هنا وفى بعض الطبعات الأخيرة (الهم) بدل المهم والأولى هى المناسبة هنا

واتفق فى الليلة التى صبّحها النصرُ أن جاء رسول من قِبَل ولَدَىْ غَيطشةَ إلى يُليان يطلبان إليه أن يتوسط عند الأمير طارق ليردَّ عليهما ضياع والدهما إذا تم له النصر ، وأنهما إذ رأيا صِدقَ عزيمة المسلمين فى الحملة خذلا رُذريق وانهزما بأتباعهما ، فضمن ذلك لهما

فلما كان اليوم الثامن من الموقعة ٦ شوال سنة ٩٢ صمَد طارقٌ بنخبة فُرسانه إلى قلب جيش العدوّ الذى فيه رذريق ، وقد عرفه طارق بنوده وشاراته الملكية ، وحمل بقيةُ جيشه على المجنَّبتين حملةً صادقة ، واشتد القتال ؛ واضطرب جيشُ القوط ، واختلت صفوفه ، وانخذل ولدا غيطشة ببعض الناس ، وتبعهم آخرون ؛ فاستحالت الحرب إلى مذبحة عظيمة استمرت سحابةَ اليوم وقتل فيها معظم القوط قتلا ذريعا ، وثبت القلبُ حتى اخترقه طارق ومن معه فأُثخنَ رذريقُ بالجراح ، وأراد أن يقتحم النهرَ بفرسه فساخ فرسه فى درغة الطين ، فعثر المسلمون على الفرس ، وكان مجللا بالذهب والجواهر ، وبجانبه احدى نعلى رذريق ، ولم يُعثرَ له على أثر . والظاهر أنه غرق فى النهر وحملته المياه إلى المحيط . وتفرق من بقى من القوط شذَر مذر . وغنم المسلمون ما لا يحصى من المال والخيل والمؤونة والسلاح . فخمس طارقٌ أربعةَ أخماسها على تسعة آلاف ممن شهد المعركة غير الأتباع والعبيد ، وأرسل إلى موسى بن نصير بالفتح . فكتب اليه أن يلبث مكانه حتى يفدَ عليه بجيش عظيم . فجمع وجوه الجند ويليانَ ، واستشارهم ؛ فكلهم أشار بمطاردة المنهزمين ، وفتح حاضرتهم طُليطُلة قبل أن ينصبوا عليهم ملكا يجمع

شملهم ، وبوحد كلمتهم . فخالف طارق رأى الأمير موسى ، وبعد أن فتح استجة بعد مقاومة عنيفة قسم جيشه إلى ثلاث فرق يقود إحداها مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، ووجهها إلى قرطبة ويقود الثانية زيد بن قاصد السكسكى ، ووجهها إلى مالقة ، وقاد هو الثالثة إلى طليطلة ففتح كل ما عُهِدَ إليه . ولم يلق طارق بطليطلة مقاومة تذكر ثم ذهب إلى مدينة خلفها فى الجبل (سميت مدينة المائدة) لأنه كان فى كنيستها مائدة لمذبحها من الذهب الخالص محلاة بأنفس الجواهر . ولما علم موسى بمخالفة طارق له فى أمره حنق عليه ، وكأنه حسده على ما تم على يده من الفتح . فقدم عليه من قابل فى ١٨ الف مقاتل ؛ منهم عشرة الآف فارس ؛ فافتتح فى طريقه الى طارق البلاد التى لم يفتتحها مثل إشبيلية وماردة حتى التقى به قافلا من غزو بلاد الشمال ، فأنبه على توغله فى بلاد يجهل مسالكها وفجاجها وتغريره بعصابة لا يأمن أن يحاط بها . فاعتذر بانتهاز الفرصة ومناجزة الأعداء قبل أن ينجم فيهم رئيس يجمع كلمتهم ويلم شعثهم ، ولكن ذلك لم يصرف موسى عن رأيه فيه ، فعزله عن قيادة جيش البربر ، وعهدها الى مغيث الرومى مولى الخليفة ، فأبت عليه شهامته وكرم نفسه أن يخلف قائده ، وأبلغ الخبر الخليفة الوليد . فأمر برد طارق الى عمله ، واصطلحا وأتما فتح البلاد على غير تواد وتواصل : فكان طارق يستأمر الخليفة رأساً فى شؤونه وكان موسى يشكو اليه استبداد طارق برأيه وكثرة تبذيره وقلة بصره بوجوه الحرب . فاستقدمهما الخليفة لينظر فى أمرهما بنفسه . أما طارق

فأجاب الدعوة طائعاً ، وأما موسى فتلكأ واعتذر بأن رجوعهما يفت فى أعضاد الجيش ويفوت عليه عاقبة النصر ، وأنه سيرجع الى دمشق ، ولكن من طريق البر الطويل (أوربة) مفتتحاً اليه ممالك الافرنج حتى القسطنطينية ، وأخذ يعد الأهبة لاقتحام أوربه . فهال الوليد هذا الخبر ، وعرف أنه تغرير بالمسلمين ، وان موسى وقع فى أهول مما نعاه على طارق ، وارتاب فى نية موسى . فبعث اليه برسول جاءه وسط جيشه وأخذ بعنان فرسه ، وذكره بطاعة الخليفة ، فلم يسع موسى الا الانقياد اليه . فاستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس واستخلف ابنه عبد الله على افريقية ورجع مع طارق الى الشام ، ومعهما ما لم يصب مثله من السبى والمال وأبناء أشراف القوط والغنائم محمولة على العجل والظهر ، فصادفا الوليد قد مات . فصرفهما الخليفة سليمان عن الاندلس ونفى موسى الى وادى القرى بالحجاز ولم تعلم بعد ذلك بقية حياة طارق

والناظر فى عاقبة هذه الموقعة الحاسمة يجد أنها كانت جليلة الخطر ، عظيمة الأثر فى حال الاسلام والمسلمين بالمغرب الأقصى ، وفى حال أهل أوربة الغربية : ذلك بأنها قضت على دولة من أقوى دول أوربة وأغناها وبسطت سلطان العرب على رقعة خصبة آهلة تمد حاميات المغرب بالميرة والذخيرة اذا حيل بينهم وبين المشرق ، وجعلت رواق هذا السلطان ينبسط أحياناً على شاطئ نهر الوار وأعالى الرون والسون من فرنسا بلة شواطئها وشواطئ ايطاليا وجزر بحر الروم الغربية ؛ مما ثبت أقدام العرب فى أسبانيا والمغرب الاقصى وأفريقية بانقطاع

الامداد ورسل الفتنة التى كان يكيد بها للعرب سكانُ جنوبى أوربة ويذمرون بها البربر عليهم

وأنها أنشأت فى هذه الجزيرة حضارة عربية راقية ذات شريعة سمحة وآداب فاضلة ، وعلوم سامية وعمارة فخمة ، بنى أهل غربى أوربة على أساسها شوامخ نهضتهم ؛ وبقى أثرها فى دمائهم ولغتهم وأدبهم وعاداتهم

كما أنها وحدت كلمة أمراء الأفرنج وسهلت انضواءهم تحت لواء قرله (شرل مرتل) فوقف تقدم العرب وأنشأ حفيده شرلمانية دولة الافرنجة العظمى التى لبثت فى أوربة دهراً طويلا حتى ثل عرشها نابليون بونابرت